المحاضرة السابعة :

الأسطورة في الشعر العربي المعاصر

1-تعريف الأسطورة :

" الأسطورة " مفرد جمعه أساطير ، وهي حكاية تعمد إليها المخيلة الشعبية البدائية إخراجا لدوافع داخلية ، و هي محاولة لفهم الكون بظواهره المختلفة و المتعددة ، اعتمادا على الخيال.

فهي مرتبطة ببدائية الإنسان الذي وجد نفسه ضعيفا أمام قوى الطبيعة فراح يعبدها و يكسبها هالة من القدسية و التأليه ، فأصبحت بذلك أحداثها خوارقا ، و البشر الموجودون فيها فوق مستوى البشر العاديين .

و من هنا فإن الأسطورة تقع خارج حدود الزمان والمكان ، ولا مؤلف لها ، لكن هذا لا يعني أنها تقع خارج حدود الواقع فهي حقيقة لا جدال فيها ، و هي قراءة أولى للتاريخ ، إذ تعتبر تعويضا عن غياب حقائق تاريخية في مراحل مبكرة ، و تعبيرا عن الوعي بالذات ، كما توضح بناء الحياة الاجتماعية و علاقة البشر بالآلهة ، خارج إطار الزمان وخارج حدود المكان .

و يؤكد رولان بارت Roland Barthes على واقعية الأسطورة رغم اعتمادها على الخيال إذ يعرفها بقوله : " الأسطورة تقليد يكشف عن واقع طبيعي تاريخي أو فلسفي من خلال المجاز أو الاستعارة و هذا هو معناها عند الإغريق "، و يوضح إلياد eliade بأن كلمة أسطورة " تعني عند المجتمعات البدائية قصة حقيقية مقدسة مثالية لها دلالتها.

فالأسطورة وسيلة من وسائل استقراء التاريخ و التعبير عنه ، ومن خلال الشعر يمكن ربط اللحظة الحاضرة من الوجود بكثير من اللحظات التاريخية ، و توظيفها في الشعر يجعله متصلا بالخيال ، و هذا ما يؤكده إرنست كاسيرر Ernst Cassirer ، يقول : " و هنا شكل آخر يتصل بالشعر اتصالا وثيقا ، فيما يبدو ، وذلك هو الأسطورة ".

2- الأسطورة في الشعر العربي المعاصر :

إن لجوء الشعراء المعاصرين إلى الأسطورة يعود في الغالب للتعبير عن قيم إنسانية أو تجارب ذاتية ، أو لأسباب سياسية... ، و لعل أغلب شعراء الحداثة العرب في توظيفهم للأسطورة وقعوا تحت تأثير صاحب المنهج الأسطوري إليوت Thomas Stearns Eliot ، و هذا لا يعني أن لجوءهم للأسطورة هو ضرب من التقليد و المحاكاة ، إنما هناك دواع عديدة جعلتهم يقعون تحت هذا التأثير كالبحث عن حرية الإنسان المهدورة بعد طغيان المادية ، وكذا تطور الحياة في المدينة ، وما لازم هذا التطور من ضغوط نفسية و اجتماعية.

و توظيف الشاعر لها ، لم يكن فقط للهروب من واقعه إنما نجده يوظفها أيضا لكي يتوحد بالواقع و يشارك مجتمعه آلامه وأفراحه ، و لكي ينجح الشاعر في توظيفها لا بد أن يكون المتلقي عارفا بها ليتمكن الشاعر من إيصال خطابه الشعري له .

والأسطورة واحدة من الأساليب التي استعملها الشعراء العرب المعاصرون للتعبير عن رؤاهم ، فأعطت أعمالهم بعدا جماليا ، وكان ذلك على يد الكثير من الشعراء المجددين ، فاستلهموا بعض الأساطير القديمة كأسطورة أوديب و أبي الهول أو قصة بنيلوب ، كما ظهرت العديد من الشخصيات الأسطورية في أشعارهم كالسندباد و سيزيف و برمثيوس... .

يقول الشاعر بدر شاكر السياب في قصيدته " أهواء" :

هي الفن أو نبعه المستطاب هي الحب ، حب الشقي الحزين

رآها تغـــني وراء القطيــع كبنلوب تستمهل العاشقيـــــن

و يقول الشاعر محمد سعيد الصكار :

أتضل تحفر في الجليد

دربا إلى هذه المدينة

و الدروب بلا انتهاء

"بنلوب" أتعبها المدى ، و البحر و الشوق الوحيد

ستموت من حزن عليك

ماذا ستفعل لو تحطمت السفينة

إن الشاعر بدر شاكر السياب و محمد سعيد الصكار يوظفان الرمز الأسطوري "بنلوب" ، و هي امرأة تنتظر عودة زوجها أوذيسيوس الذي غرق في البحر و أصبح يتحدى الخوارق ، لكن عودته طالت فباتت تستمهل العاشقين أملا في لقاء زوجها ، وتوظيف الشاعرين لهذا الرمز جاء على سبيل التشبيه ، دون أن يكون لهذا الرمز دور في الكشف عن شيء جديد .

كما نجد بدر شاكر السياب يستعمل رمزا أسطوريا آخر في قصيدته "رحل النهار" ، و هو رمز السندباد ، يبدأ الشاعر قصيدته بقولـه :

رحل النـهار

ها إنـه انطفأت ذبالته على أفق توهج دون نار

و جلست تنتظرين عودة سندباد من السفار

و البحر يصرخ من ورائك بالعواصف و الرعود

لكن الشاعر يوظف هذا الرمز الأسطوري لا على سبيل التشبيه إنما يعطيه بعدا آخر و دلالة أخرى ، فالسندباد رجل يركب سفينته راحلا للبحث عن الطرائف فيتعرض لمواقف شاقة لا يخرج منها إلا بعد عناء و مغامرة ، ورحلاته تنتهي دائما بعودته مهما طالت ، لكن الشاعر في هذه القصيدة جعل عودته غير ممكنة ، فالنهار قد رحل و حل الظلام ، والبحر يصرخ بالعواصف و الرعود ، فرحلته لا عودة منها ، يقول :

هو لن يعود

رحل النهار

فلترحلي ، هو لن يعود

و محمود درويش هو واحد من شعراء الحداثة الذين وظفوا الأسطورة في أشعارهم و قد جعلها كمتكأ لبث رؤاه ، والتعبير عن قضيته ، ومجتمعه وواقعه ، لذا نجد تنوع الرموز الأسطورية في أعماله ، ومن أكثر الرموز التي تتكرر نجد "العنقاء " أو " طائر الفينيق" ، و هو طائر خرافي ارتبط في الذاكرة الأسطورية بأنه طائر خالد متجدد لا يموت ، و إذا مات فإنه يبعث من رماده ، فهو عند محمود درويش رمز للثورة الخالدة أو الوطن الخالد أو الشعب الخالد ، لذلك فهو يرى في شباب المقاومة الفلسطينية في بيروت صورة من طائر الفينيق ، " فهو لا يحرق نفسه إلا إذا شعر باقتراب موته ، فهو حينئذ يحرق نفسه ليقهر الموت و يتغلب عليه ، و يعيد إنتاج ذاته ، و كذلك شباب المقاومة الفلسطينية فهم لم يعرضوا أنفسهم لنيران العدو ، ويواجهوا أسلحته المتطورة إلا حين شعروا أن شعبهم معرض للاستأصال ، و قضيتهم معرضة للنسيان ، لذلك أحرقوا أنفسهم بنيران عدوهم ليجددوا ولادة شعبهم و يحافظوا على قضيتهم " ، يقول محمود درويش في قصيدته "مصرع العنقاء" من ديوان (لماذا تركت الحصان وحيدا : 1995) :

في الأناشيد التي ننشدها

ناي ،

و في الناي الذي يسكننا

نار ،

و في النار التي نوقدها

عنقاء خضراء

لقد ميز الرمز الأسطوري التموزي بشكل خاص نمط القصيدة المعاصرة ، فبدت لغة الرمز الانبعاثي نسقا مجازيا فنيا، وأطلقت تسمية الشعراء التموزيين* على بعض الشعراء المعاصرين المولعين بالمنهج الأسطوري ، ومن أبرزهم السياب وخليل حاوي ويوسف الخال وأدونيس.

اهتم أدونيس بالرمز الأسطوري تموز وهو نفسه مرادف أدونيس*، فقد اختاره وسمى به نفسه لأن هذه الأسطورة " تختزل كل مشكلات إنسانه ، مشكلة الموت والتجدد والفراغ والغربة والبطولة والمحبة وصور الموت المتعددة في مجتمعه "، يقول في قصيدة البعـــث والرمـاد : –ترتيلة البعث– :

تموز مثل حمل – مع الربيع طافرٌ
مع الزهور والحقول والجداولِ
النجمية العاشقة للمياه ،
تموزُ نهرُ شَررٍ تغوص في قرارهِ
السماءُ . تموز غصن كرمةٍ
تخبئه الطيور في عِشاشِها
تموز كالإلــه .

* الشعراء التموزيون: تسمية أطلقها جبرا إبراهيم جبرا على هؤلاء الشعراء لأنهم عالجوا في شعرهم موضوع الموت والبعث الذي ترمز إليه أسطورة " الإله تموز" الذي يموت ويبعث من رماده، وقد اعتبره أولئك الشعراء رمزا لموت الشعب العربي وخروجه من الظلمة إلى النور . ينظر: روز غريب ، الشعراء التموزيزن – السياب ، مجلة الأديب ، لبنان ع 5–6 ، يونيو 1980، ص 19